

مفهوم المعرفة الاجتماعية عند كارل مانهايم

معارك ناصر

قسم الفلسفة، جامعة عبد الحميد مهري- قسنطينة 2

Email :maarek-nacer@hotmail.fr

ملخص:

سنحاول من خلال هذا المقال تحديد مفهوم المعرفة الاجتماعية عند كارل مانهايم، بتتبع أهم المحطات التي شكلت مشروعه الابستمولوجي المتمثل في سوسيولوجيا المعرفة وهذه المحطات هي مسيرته الفكرية ومنهج البحث الاجتماعي وأخيرا تاريخ المعرفة العلمية بهدف الإجابة على مشكلة بحثنا واستخلاص أهم النتائج التي توصلنا إليها، إذ تشكل المعرفة الاجتماعية عند كارل مانهايم ثورة ابستمولوجية على الابستمولوجيا الكلاسيكية وذلك بالتركيز على العوامل الموضوعية المتمثلة في الشروط السوسيو- تاريخية .

الكلمات المفتاحية: المعرفة الاجتماعية، سوسيولوجيا المعرفة، المعرفة العلمية الابستمولوجيا الكلاسيكية.

Abstract:

Through this article, I try to define Karl Mannheim's concept of social knowledge, by tracing the most important stations that formed his epistemological project represented in the sociology of knowledge, and these stations are his intellectual career, the method of social research and finally the history of scientific knowledge, with the aim of answering the problem of our research and extracting the most important results that we have reached. For Karl Mannheim, social knowledge constitutes an epistemological revolution in classical epistemology, by focusing on the objective factors represented by socio-historical conditions.

Key words: social knowledge, sociology of knowledge, scientific knowledge, classical epistemology.

مقدمة:

يعتبر كارل مانهايم من بين أبرز الاستمولوجيين في حقل العلوم الاجتماعية، بمحاولته معالجة معضلة الموضوعية، إلا أنه انطلق من بوابة علم الاجتماع المعرفي الذي أخذ على عاتقه مهمة البحث عن سبل كفيلة لتحقيق الموضوعية أمام الصراعات الإيديولوجية بهدف ضبط مفهوم للمعرفة الاجتماعية وكشف الستار عن الأسباب التي تقف وراء تحديد مصادرها التاريخية والاجتماعية. لهذا سنقوم بطرح التساؤل التالي: ما هي أهم المحطات الفكرية التي ساعدت كارل مانهايم على الاهتمام بالمعرفة الاجتماعية؟ وما هو المنهج الذي يقترحه لنا كمخرج من معضلة المعرفة الاجتماعية؟ وإلى من يعود الدور الفاعل في إنتاج المعرفة؟

أولاً: المسار الفكري المانهيمي

لعل البيئة الاجتماعية المتنوعة التي ترعرع فيها كارل مانهايم (Karl Mannheim) (1893-1947) منذ مرحلة النشأة المجرية-الألمانية إلى غاية فترة الشباب والنضج في إنجلترا، تعتبر السر وراء تجربته الفلسفية والمعرفية التي ترجمها في مشروعه الاستمولوجي-سوسيولوجي طيلة مساره العلمي المتمثل في سوسيولوجيا المعرفة، حيث تشبع بالأفكار الاشتراكية عندما انخرط في الحزب الشيوعي على جانب مواطنه المجري جورج لوكاش George Lukács وذلك عامي 1917 و1918، كما تواصل مع الفكر الاجتماعي الألماني عندما انتقل إلى مدينة هيدلبرغ Heidelberg الألمانية التي كانت الرابطة الفكرية التي تعرف فيها كارل مانهايم على فكر الأخوين وعالي الاجتماع ألفرد فيبر Alfred Weber وماكس فيبر Max Weber¹.

وهنا نجد بأن كارل مانهايم مارس الفكر من زاويته الإستمولوجية والسياسية على اعتبار أن فكره مرتبط فلسفياً بالقضايا المعاصرة له والتي تجلت في تلك التنقلات الجيوسياسية أين كان الوضع العالمي يحمل بين

طياته معضلات سوسيو-سياسية، من هنا كانت العوامل الاجتماعية والسياسية خصوصاً بين عام 1922م إلى غاية 1929م أحد أهم المحطات التي صنعت الرأسمال الفكري لكارل مانهايم حيث برز كأحد أهم علماء الاجتماع أمثال: ماكس فيبر، ماكس شيلر، جورج زيمل، وجورج لوكاش، زد على ذلك عمله كأستاذ بجامعة فرانكفورت² باعتبارها بيئة فعلية لممارسة الفكر الاجتماعي إلى جانب العديد من علماء الاجتماع الذين ساهموا في بناء الصرح المعرفي لمعهد العلوم الاجتماعية، ونذكر منهم على سبيل المثال: فرانز أوبنهايمر Franz Oppenheimer، غوتفريد سالومون Gottfried Salamon، كارل غرونبرغ Carl Grünberg، ماكس شيلر Max Sheler، وماكس هوركهايمر Max Horkheimer الذين شكلوا حقبة جديد في الفكر الألماني داعين بذلك إلى مشروع النقد الاجتماعي.

وأصبح بالتالي علم الاجتماع الألماني تحت رعاية الأقلية اليهودية، التي كانت تسعى إلى الدفاع عن كيانه كمجتمع متشعب بانشغالاته ومواضيعه الاجتماعية الخاصة³، لأن النخب التي كانت تمثل الأقلية اليهودية في ألمانيا حاولت أن تترجم معاناتها المكبوتة سياسياً إلى لغة علمية قصد السيطرة على الوعي الأوروبي في تلك الفترة، وفتح حيز للحوار وفرض منطقها برؤى جديدة تقبل تدريجياً، أما احتكاك كارل مانهايم بالنخبة الاجتماعية المذكورة ستفتح له آفاقاً ابستمولوجية هامة، خصوصاً في ظل مشكلة موضوعية العلوم الإنسانية أمام التقدم المنهجي الذي حققته العلوم الطبيعية، والشرح الاجتماعي الذي أضحى مطروحا عقب الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث أصبحت البنية الفكرية للعالم قاب قوسين أو أدنى من الهلاك الذي ترجمته الدكتاتوريات الفاشية سياسياً ثم وما انجر عنه من إعاقاة البحث الاجتماعي إذا ما استمرت في توجيه الوعي الاجتماعي باعتبارها إيديولوجيات سكونية لا تقبل المقترحات العلمية الجديدة.

وقد ترجم مانهايم بعض مجريات العالم مع مقترحاته عندما اندمج مع الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت بتأسيس نظرية النقد الاجتماعي التي اهتمت بنقد العقلانية العلمية والتقنية التي استغلت كوسيلة للضغط الاجتماعي، وقد كان موضوع نقد الإيديولوجيا نقطة الالتقاء الفكري بين مانهايم وعضوي مدرسة فرانكفورت هوركهايمر وأدورنو، ذلك أن الإيديولوجيا في حقيقتها مناقضة للعلم باعتبارها وعيا زائفا يساهم في توجيه الوعي الاجتماعي نحو الجمود والخمول، كما تقضي على شفافية العلم الموضوعية، والدليل على ذلك أن الفكر العلمي المعاش ونتائجه كانت عبارة عن لون من ألوان إيديولوجية الاضطهاد الاجتماعي⁴، المتسامية على الوضع الاجتماعي، والزيف يدل على ارتباطها المباشر بالوعي الاجتماعي وهي مجموعة من الأفكار المتنوعة و المتسامية على الوضع القائم، حيث كثيرا ما تكون معانيها مزيفة ومشوهة، ونفس الشيء نجده مع هوركهايمر في صياغته للنظرية النقدية⁵. ويعتبر كارل مانهايم من الجيل الثاني للسوسيولوجيين الألمان، إذ امتازت أفكاره الاجتماعية بأنها أفكار سوسيولوجية ريبية ونسبوية ممزوجة بالفلسفة الوجودية، حيث لجأ إلى ابتكار مفهوم العلائقية للخروج من السجال الإيديولوجي نحو الحقيقة الموضوعية⁶.

ونلاحظ أن جميع الميزات التي اختص بها كارل مانهايم عبارة عن تأثير ماركسي في الأساس الأول، قبل أن يغير وجهته إلى مرحلة التأسيس الفعلي لسوسيولوجيا المعرفة بدلا من النقد الأيديولوجي، فاقترح العلائقية بدلا من النسبية كمهرب من اتهامه بإتباع التقليد الماركسي وهذا ما جعل جورج لوكاش ينتقده بشدة، كما أن مانهايم حاول تبرير منهج الفهم الرامي إلى التمييز بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية كتمييز إبستمولوجي لطبيعة الظاهرة الاجتماعية والمنهجية.

وقد تجلت أفكار مانهايم المتأخرة في بريطانيا عام 1933م بابتكاره مفاهيم جديدة مثل: إعادة البناء، التخطيط، والديمقراطية، حيث عكس جل هذه التصورات في كتابه (Man and Society in an Age of Reconstruction)⁷ وفي بريطانيا استكمل كارل مانهايم البراديغم المعرفي الذي يزاوج فيه بين علاقة الفرد بالمجتمع كرؤية تجريبية المنهج الذي يتماشى مع روح العصر. كذلك فمتابعته لأعمال ماكس فيبر نهته إلى فكرة فهم بنيات الوعي الاجتماعي الداخلية خلال القرن العشرين ودراستها، فكتب مقالة في الروح والثقافة "Soul and culture" يعبر فيها عن أزمة الثورة الهنغارية فكانت هذه الفترة مرحلة جلية لتأسيس المنظور الاجتماعي المانهيمي انطلاقاً من كتاب "الإيديولوجيا و اليوتوبيا" (1929) منتهياً بفكرته حول تشخيصه لأزمة العصر في كتابه: (Diagnosis of Our Time) .

وقد عبر دونالد أ. نيلسون عن التكوين الفكري والاجتماعي لـ :مانهايم فقال:«...لقد تعمق مانهايم مشغول البال بكل من التجديد الروحي وإعادة البناء الاجتماعي، رغم أن موازنة الصراع بين السابق واللاحق انطلاقاً من حياته وتكوينه، نى تحت حماسة الأحداث الخارجية وهجرته الجغرافية»⁸، فقد كانت تبعات الثورة الفرنسية ذات امتداد طويل على أوروبا، ما انجر عنها قيام الثورة الروسية التي تبعها توترات سياسية مليئة بالصراعات الإيديولوجية بين السلطة و المعارضة التي كان من أبرز ممثلها آنذاك كارل مانهايم وجورج لوكاش، روزا أوكسامبورغ وغيرهم من المفكرين الذين انتقدوا بشدة النمط الاشتراكي المنتهج في الاتحاد السوفياتي ، فكانت بذلك هنغاريا البلد الذي طبع الفكر المانهيمي بمعالجة مواضيع مثل مشكلة البيروقراطية ومفهوم الطبقة ، ومفهوم الوعي الطبقي والفكر الإيديولوجي والوعي الزائف، ومشكلة القيم المعرفية الاجتماعية.⁹ وسيكون لزاماً على

مانهايم ابتكار منهج جديد يساعده على فهم البنية المعرفية للوعي الأوروبي المتمثل في الصراعات الإيديولوجية.

ثانيا: منهج البحث الاجتماعي:

لقد حاول كارل مانهايم بناء رؤية فلسفية وعلمية جديدتين حول مشكلة المعرفة الاجتماعية، بتطرقه لعدة تساؤلات حول السبل الكفيلة بتأسيس معرفة اجتماعية موضوعية في ظل الاختلافات الفكرية والأيدولوجية داخل المجتمع ، فكان الحل في رأيه يكمن في تأسيس منهج جديد مهمته البحث والنقد بهدف الوصول إلى صياغة واضحة للمشكلات المطروحة على الساحة العلمية، ويتماشى مع النمط الفكري المعاصر وفهمه، كما يجب على الباحث الاجتماعي الاهتمام بالمعرفة ونشاط الفكر ووضعها الاجتماعي والحفاظ على سياقهما¹⁰.

ومشكلة المنهج كانت أولى القضايا العلمية التي طرحها المجتمع العلمي بعدما تحقق النجاح لدى العلوم الطبيعية، لكن عندما أرادت العلوم الاجتماعية محاكاة المنهج التقليدي للعلوم الطبيعية وقع جدال حاد بين العلماء، مؤكدين على صعوبة دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية بسبب تعقدها ما يطرح معضلة الموضوعية التي ما برحت أن تنجو من العوائق الإبيستمولوجية حتى فرضت عليها العوائق الأيدولوجية التي حاول مانهايم تجاوزها من خلال فكرة المنظورية التي فسرها داخل علم الاجتماع المعرفي.

ويميز كارل مانهايم بين نموذجين من نماذج البحث الاجتماعي داخل حقل العلوم الاجتماعية ، الأول يمثل عالم الاجتماع المنتشي بالموضوعية الهادفة إلى بلوغ قوانين عامة كما هو موجود في العلم الطبيعي، أما النموذج الثاني فيمثل علماء الاجتماع المسارين لفلسفة التاريخ كحل جديد لمشكلة الموضوعية من أمثال: ماكس فيبر وارنست ترولتش¹¹. E. Troeltsch ويعتبر

ماكس فيبر من المجددين في الدراسات الاجتماعية من حيث منهجيته التأويلية للفعل الاجتماعي، كعنوان جديد للموضوعية القائمة على التحليل التفسيري للتاريخ.¹² أما أعمال دلتا يفقد استكمل مسيرتها إرنست ترولتشن خلال أعماله القائمة على فكرة الخبرة التاريخية الإنسانية المتميزة عن الظواهر الطبيعية وكحل لمشكلة النسبية داخل العلوم الاجتماعية.¹³ ومحاولة كل من إرنست ترولتش و ماكس فيبر تعتبر بمثابة التمهيد المنهجي الذي سينتهجه مانهايم في أعماله الاجتماعية المختلفة من خلال سوسيولوجيا المعرفة¹⁴ أو قل إلحاحا منه على ضرورة قيام مشروع خاص بالعلوم الاجتماعية بالرغم من العقبات التي واجهته خلال بحثه ، حيث علق على ذلك بقوله:«...ومن هنا فإنه من الأمور الشاذة والغريبة في عصرنا أن تظل تلك المناهج الفكرية التي نتوصل بواسطتها إلى أشد قراراتنا حسما والتي تسعى بواسطتها إلى تشخيص وترشيد مصيرنا الاجتماعي والسياسي، مجهولة وبالتالي مستعصية على السيطرة الفكرية وبعبدة عن النقد الذاتي».¹⁵ لهذا ارتأى مانهايم إلى ضبط موقفه من المعرفة الاجتماعية القائمة على التحليل المنطقي والمتصلة بالوضع الاجتماعي الذي تشغله ، بأنها يجب أن تقوم مرة أخرى على منهج جديد يسميه بمنهج سوسيولوجيا المعرفة¹⁶ . وبالتالي فآزمة المعرفة الاجتماعية متعلقة في أول الأمر بالدوغماتية التي ساعدت على ستر الملكة النقدية باعتبارها سلاحا ابستومولوجيا معاصرا، إذا أراد أي حقل علمي التقدم ، وهنا بالذات يحاول مانهايم الفصل بين النزاع المنهجي حول الطريقة المثلى لبناء معرفة اجتماعية أصيلة ، حيث اقترح منهجه الجديد آملا قدرته على الفصل بين النزاعات المنهجية، والكشف عن أسباب الصراع الإيديولوجي، والقدرة على التحليل الأركيولوجي بالتنقيب داخل الجذور التاريخية للمشكلة المطروحة ، وتوحيد الرؤى البحثية تحت إطار علم اجتماع المعرفة . والنمط الفكري الذي يريد كارل مانهايم البحث

فيه، يتمثل في الحياة الاجتماعية التي يعتبرها الأوفر نصيبا لاحتوائها على الأرضية الخصبة للمجالات والنماذج الفكرية، فيشترط أن تنسجم البنى الفكرية مع محيطها الاجتماعي والتاريخي، لأن النمط الفكري الصحيح للمعرفة لابد أن يكون خاضعا للتعديل على الدوام بهدف الابتعاد عن الفوضى، وتفادي خضوع الفكر الاجتماعي لأي سلطة أيديولوجية لكي لا تحد من ديناميكيته أو تقدمه.¹⁷ وهذا هدف من بين الأهداف التي سطرها مانهايم مع مدرسة فرانكفورت عندما كان أحد الأساتذة هناك، فقام مع البعض منهم بنقد جميع الأشكال الإيديولوجية التي كانت سببا في خلق التوتر الفكري في أوروبا آنذاك و الصراعات الإيديولوجية عقب الحرب العالمية الثانية، وبالخصوص الاضطهاد النازي لليهود ومعاداته للسامية.

وفي نفس السياق جسد مانهايم هذه الفكرة من خلال شرحه لمهمة التاريخانية كتجسيد لمفهوم العقل الاجتماعي في التاريخ في أنها تقوم بتزويد المجتمع بالنسق المعرفي المنوط بالرؤية الشاملة للعالم، حيث تندمج كل من التاريخانية و الرؤية الشاملة للعالم كتفكير موحد يكون خارج مجال الأنساق الفكرية القديمة، ويهدف إلى تنقيح وتعديل الإرث الذي سوف يتداوله المجتمع كمعرفة اجتماعية ممزوجة بالتاريخ والمعرفة السوسيولوجية، حيث يقول: «...التاريخانية في الواقع هي نفسها رؤية شاملة للعالم تقوم من خلال العملية الديناميكية للتطور والتنظيم»¹⁸.

ومانهايم يركز على الجدلية المبنية على الصراع الفكري بحيث أن الصيرورة الدائمة للأفكار الاجتماعية تصنع التاريخ، كما تعكس المعرفة السوسيو. تاريخية كروية شاملة للعالم تعبر بها عن إيديولوجيتها الكلية التي هي في حقيقة الأمر الموضوع الجوهرى لعلم الاجتماع المعرفي. وكما أشرنا سابقا فإن مانهايم انطلقا من كتابه "الفرد والمجتمع في عصر إعادة البناء"، سوف يدعو من خلال عنوان كتابه إلى إعادة النظر في المعارف الاجتماعية

السابقة، بهدف ترميم الأفق الاجتماعي من بوابة العلوم الاجتماعية التي تهتم بالإنسان السوسيو تاريخي، وهي تعتبر أيضا نمطا حداثيا ، يسعى إلى تجنب الإنسان الفوضى التي عاشتها أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ، وخصوصا في المجر وألمانيا اللتان كانتا في عرض تلك الصراعات السياسية ، و الصراعات الإبستمولوجية والمنهجية ، إذ أنه يشير إلى السلطة كونها هي من تشكل العائق أمام تقدم الفكر الاجتماعي، على اعتبار أن الفكر الاجتماعي مملوء بالأفكار المتنوعة والمتباينة الاتجاهات ، وميزة الفكر أنه يتمتع بالحرية والاستقلالية في التعبير عن الرؤية الشاملة للعالم التي تحياها النخب. كما أن دعوته إلى الترشيد والتحكيم إلى أسلوب اتفاقي مبني على التخطيط ، أو براديغم معرفي يحيل إلى منظور الهيئة العلمية كمشروع جديد يعكس هدف إبستمولوجيته الاجتماعية كوجه آخر لعلم الاجتماع المعرفي.

والفرضية الرئيسية لسوسيولوجيا المعرفة مفادها أنه: «...توجد أنماط فكرية لا يمكن أن تفهم فهما كافيا طالما ظلت أصولها ومنابعها الاجتماعية مجهولة أو غامضة »¹⁹ بمعنى أن المناهج السابقة التي ظلت مهيمنة على الساحة العلمية والثقافية لزمن طويل كإطار مرجعي دوغماتي منغلقة على نفسه وغير قابل للنقد والمراجعة ، قد غفلت عن البحث عن الأنماط الفكرية بالبحث عن أصولها ومنابعها الفكرية المجهولة والغامضة، ما استدعى بكارل مانهايم إلى توظيف منهج سوسيولوجيا المعرفة كبديل عن تلك المناهج القديمة ليؤدي بذلك دور المنقب والباحث عن أصول الأفكار والمعرفة الاجتماعية، وكأن مانهايم يريد من منهجه الجديد أن يكون منهجا أركيولوجيا كما استعمله ميشال فوكو، ومن جهة ثانية نجد أن على الاجتماع المعرفي مبحث يجمع بين المنهجية الإبستمولوجية وبين المنهجية السوسيو-تاريخية ، ليصبح مبحثا ذا وجهة نظرية وميدانية معا .

ثالثا: تاريخ المعرفة العلمية:

يحاول كارل مانهايم استقراء الفكر الإنساني بالثبات على ثلاثة أنماط منهجية يرى فيها أثرا على المعرفة العلمية للبراديغم المعرفي الغربي مسترسلا إياها في ثلاث حقول منهجية هي:

أ) الاستمولوجيا:

إن الاستمولوجيا ^(*) تهتم بدراسة: «... طبيعة المعرفة وتبريرها، وتحديد لها لتكون بذلك دراسة: ^(١) صور المعرفة، ^(ب) شروط أو أصل المعرفة، ^(ج) حدود المعرفة وتبريرها». ²⁰ وما نفهمه من هذا التعريف أن الاستمولوجيا لا تخرج عن نطاق نظرية المعرفة، أما أندري لالاند A. Lalande فعرفها بأنها: «...الدرس النقدي (الدراسة النقدية) لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها الرامي إلى تحديد أصلها المنطقي وقيمتها ومداهما الموضوعي» ²¹. وتمتاز عن نظرية المعرفة بأنها: «...تدرس المعرفة بالتفصيل وبشكل بعدي في مختلف العلوم والأغراض أكثر مما تدرسها على صعيد وحدة الفكر». ²² أي أن الاستمولوجيا تختص بالمعرفة العلمية الأميركية، عكس نظرية المعرفة التي من اختصاص الفيلسوف من حيث بلوغ المعرفة أو الحقيقة.

أما بالنسبة لسياقها التاريخي فيرى كارل مانهايم أنها ظهرت لما انهارت الصورة المركزية للعالم تماشا مع نهاية حقبة القرون الوسطى وبداية العصر الحديث الذي جسده العلماء برسم موقف يتماشى مع رؤيتهم العلمية عاكسين بذلك رؤيتهم للعالم، فنقلوا نظرية الوجود لتعبر عن الحس العقلاني بدلا من الطابع الكنسي، فكانت الاستمولوجيا اكتشافا هاما بالنسبة للمفكرين الذين تغلغلوا إلى قواعد الفكر، فبرهنوا بأنه لا توجد تصورات عديدة عن العالم فقط، بل توجد أيضا أنظمة وجود عديدة، ما حدا بالفكر الاستمولوجي الكلاسيكي في تلك الفترة إلى حصر طبيعة المعرفة بين قطبي الذات والموضوع حيث يعتبر أن المشكلة الاستمولوجية الحققة

بدأت لما أصبحت الذات هي نقطة الانطلاق لتفسير جميع ما يدور حولها من موضوعات العالم الخارجي بدون منازع، فكان الفكر آنذاك ينطلق من فرضيتين رئيسيتين، إما أن المفكر يبدأ من عالم الأشياء المعروفة والمفترضة مسبقاً أي كمعرفة متفق حولها أو قبلية، فتكون جميع التفسيرات والرؤى مبنية على أساس ذلك الافتراض أو أنه يبدأ من الذات المفكرة باعتبارها قضية مسلم بها، قصد التوصل إلى معرفة صحيحة لتكون الذات مرتبطة بنظام العالم، لكن هذا الزعم بقدرات العامل الذاتي قد وجهه جون ستيوارت ميل J.S. Mill الذي أصر على ضرورة توجيه الذات العارفة نحو العوامل الموضوعية.²³ حيث تبنى المنهج التجريبي متأثراً في ذلك بكل من فرنسيس بيكون F. Bacon ودافيد هيوم D. Hume، فرفض جميع الفلسفات الميتافيزيقية، والمناهج الصورية، كما رفض أيضاً، المعرفة الفطرية والقبلية مبرراً ذلك ابتعاد الفلسفات الذاتية عن أسس الخبرة الحسية، وإغفالها للوقائع الجزئية الواقعية.²⁴

وعلى الرغم أن مانهايم يشير إلى محاولات جون ستيوارت ميل لبلوغ الموضوعية، إلا أنه يرى أن فترة العصر الحديث تبقى فترة انتصار الذاتية عندما نصبت الذات الإنسانية على رأس المعرفة لتضمن جميع أسرار العالم الخارجي، في حين أن العوامل الموضوعية والاجتماعية لم تلق في تلك الفترة أي اهتمام، اللهم تلك المحاولة التي قام بها الفيلسوف التجريبي الانجليزي ج. س. ميل عندما أشار إلى دور العوامل الموضوعية التجريبية كالتفاتة منه إلى ضرورة الخروج من الميتافيزيقا والتفكير المجرد نحو التفكير العملي الملموس حيث كانت النظرة الحديثة للعالم «...نتاج تلاق غير اعتيادي لجملة أحداث وأفكار وشخصيات، كانت على تنوعها المتضارب تجسد رؤية شديدة الإلزام عن الكون وعن مكان الكائن الإنساني فيه رؤية جديدة جذريا من حيث الطابع»²⁵. بمعنى أن فكرة الصراع بين الإنسان والطبيعة قد جسدها علماء

العصر الحديث بإعطاء الأولوية للإنسان بأن أصبحت الطبيعة مع **بيكون** عبارة عن كتاب مفتوح يجب السيطرة عليها، وانتصار الذات الإنسانية بإرجاع مكانتها التي سلبتها منها الطبيعة، انطلاقاً من التفسيرات الكلاسيكية التي كانت تابعة للبراديغم اليوناني.

ويؤكد مانهايم على نسبية المعرفة على اعتبار أن لكل حقبة زمنية فكرها ومفكروها، ورؤيتها الخاصة للعالم، إذ أن الفكر قد مر حتى الآن بمرحلتين، كانت المرحلة الأولى مبنية على التصور العقائدي اللاهوتي، فالفكر كان عبارة عن معتقدات مرتبطة بتعاليم الكنيسة المحرفة التي كانت غارقة داخل بوتقة الفكر الأرسطي، فشككت براديغما ساكنا، وبقي الفكر غير نشط، ولم يستطع تجاوز السلطة العقيدية، والتعبير عن تحليلاته الجديدة التي توصل إليه حاملوه من علماء وفلاسفة. أما الحقبة الثانية فإنها أيضاً، تعبر عن براديغم ثان لكنه ديناميكي نوعاً ما، لأنه قدم الأسباب المنهجية لتفسير العالم بالانطلاق من الذات العارفة لتفسير المعرفة وبناء نظرية معرفية خاصة به.

والملفت للنظر أن مانهايم يؤرخ للذاتية كمنطلق للإبستمولوجيا الحديثة من ديكارت **Descartes** لأنه قاد نظريته المعرفية المبنية على الروح الفكرية المعبرة عن حرية العقل، بانتهاجه الشك كمنطلق جديد لبلوغ الحقيقة العلمية، على اعتبار أن العقل يملك قدرة تمكنه من الحصول وامتلاك الحقيقة اليقينية، حيث كان الكوجيتو الديكارتي الأساس الذي تبنى عليه كل فلسفة علمية تقوم منهجياً على البداهة والاستنتاج.²⁶ فكانت النزعة الشككية الديكارتية دافعاً جديداً للبحث الإبستمولوجي، بعدما قاد نظريته المعرفية إلى صلب موضوع العلم الحديث الذي غص الطرف عن التقليد المدرسي.²⁷

ذلك أن عصر ديكارت أصبح يعرف بعصر العقل السليم المشترك بين جميع الناس ، والوسيلة المنهجية التي تتيح لنا المعارف من دون الوسائط الخارجية.²⁸ حيث يعبر جون كوتنغهام عن الدور النهضوي لذاتية ديكارت بقوله:«...يعد ديكارت عموما وبحق الشخصية المحورية في الانتقال من الفلسفة الكلاسيكية إلى الفلسفة الحديثة.وليس هذا ناتجا عن التعاليم التي قدمها (...).بقدر ما يرجع إلى تصوره الفلسفي.لقد كاد ديكارت يبتكر وحده صورة مدهشة ومغرية إلى درجة كبيرة للمنهج الذي على الفيلسوف أن يتبعه بحثا عن الحقيقة»²⁹.

ويؤكد مانهايم أن الاهتمام بالذات العارفة قد تجلى مع تيارين هامين في تاريخ الفلسفة،أولا التيار العقلاني الممثل بالفلسفتين الفرنسية والألمانية بدءا بديكارت **Descartes** ومرورا بـ **Leibnitz** وانتهاء بـ **Kant** ، أما التيار الثاني فمثلته المدرسة السيكلوجية الانجليزية لدى كل من: **Hobbes**، **Locke** ، **Berkeley** و **Hume** .إلا أن ديكارت هو الممثل الحقيقي للتجربة الذاتية، لأنه كافح من أجل الوصول إلى الكوجيتو القائل <<أنا أفكر، إذن أنا موجود>>، وهذه هي نتيجة تفحص كل النظريات التقليدية ،«...فكانت هذه هي النقطة الوحيدة التي استطاع الانطلاق منها من جديد ليرسي قواعد صورة للعالم»³⁰.

إن هذه الرؤية المعرفية بالنسبة لكارل مانهايم قد انحصرت بين عاملي الذات والموضوع، ذلك أن الرؤية التي كانت لدى مفكري العصور الوسطى هي الإيمان بنظام للعالم خالٍ من الغموض ، وكان كل شيء يُنسب ويُفسّر على أساس عالم الأشياء بما فيها الذات الإنسانية وقيمة الفكر أيضا.أما الانعطاف نحو الذات فقد كان مع انهيار التصور المركزي للكنيسة ، وذلك أن اتُّخذت الذات نقطة انطلاق لتحديد طبيعة فعل التعرف البشري وقيّمته ، بهدف تفسير العالم على ضوء الذات الفاعلة، حيث عبر مانهايم عن ذلك

بقوله:«...ولم يبق سوى خيار واحد هو الاستدارة والسير في الطريق المعاكس واتخاذ الذات نقطة انطلاق لتحديد طبيعة فعل التعرف البشري وقيّمته، وعلى هذا الأساس محاولة إيجاد مستقر ومرسى للوجود الموضوعي في الذات التي تقوم بفعل التعرف»³¹.

ويريد مانهايم من انتقاده للإبستمولوجيا الحديثة، تعديلها وتعديل كوجيتوديكراتي جديد يتماشى مع الفكر المانهيمي بأن يصبح، كوجيتو مانهايمي يقول "أنا موجود إذن فأنا أفكر"، لتصبح الذات جمعية، فالفكر حسبه تابع للوسط الاجتماعي الذي تحيا فيه الذات المفكرة، فالوسط الاجتماعي هو التربة التي تزود الفكر بالقيم والمبادئ الأساسية التي تسمح له بإنتاج مقولات تتماشى مع صيرورة التاريخ، والتقدم نحو بناء مستقبل تاريخاني يحمي آمال النخبة الفكرية، و مانهايم في هذه الفكرة بالذات متأثر بفكرة التقدم الماركسية نازعا منها الجانب المادي ومعوّضا إياها بنظريته السوسيو-تاريخية.

ويرى ريمون بودون أن الذات الإنسانية كانت فاعلة في عصر الأنوار، لأن هذا العصر كان يولي قدرا كبيرا من الاهتمام بها، من حيث استقلالية الكائن البشري وحرية وقدرته على الإبداع والحكم على العالم الخارجي دون أي ضغوط موضوعية.³² فكان الفرق بين العلم الحديث وعلم القرون الوسطى في اختلافهما في المبدأ والانطلاقة كنظرة أولى للعالم، على اعتبار أن العلم الحديث يبدأ من الوقائع، في حين أن علم القرون الوسطى يبدأ من فرضيات تخيلية وتصورية مفروضة مسبقا³³.

وعلى الرغم من كل هذه الفروق بين العلم القديم والعلم الحديث، إلا أن العالم أو الباحث في العصر الحديث خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كان يمتن الصفتين معا، أي نجده عالما وفيلسوبا في نفس الوقت «...» فقد كان هناك وعي بأنه لا توجد وقائع صرفة، فالواقعة كانت واقعة فقط

بحسب مفهوم أساسي ، وهذا يتوقف على مدى المفهوم»³⁴ ولما كانت الإرادة الإنسانية التي عملت على تحطيم المبدأ السلطوي ، من أجل إبراز أهمية الذات في فعل التعرف داخل إطار المعرفة الإنسانية ، فإنها ساهمت في تغيير الرؤية الشاملة للعالم بابتكارها إبستمولوجي خاصة بها، إذ ينظر مانهايم إلى هذه المحطة باعتبارها بديلا مؤقتا، لأنه لا يوجد ما هو أحسن من ذلك، والحل الكامل للمشكلة لن «... يكون ممكنا إلا إذا تولى عقل فوق مستوى البشر ومعصوم عن الخطأ إصدار حكم بخصوص قيمة تفكيرنا»³⁵.

بمعنى أن الحل الذي قدمه أفراد العصر الحديث بالتوجه نحو الذات من أجل تفسير المعرفة، ليس بديلا مطلقا، وإنما سيفشل مع مرور الزمن، لأنه من الضروري التوجه نحو رؤية جديدة لتفادي انزلاق التفسير الذاتي مرة أخرى، ما يستدعي رؤية موازية تفوق عقول البشر من أجل التقدم، وهذه الرؤية هي الرؤية الموضوعية، كما أن الرؤية التي تعتبر موضوعية ستتغير برؤية موضوعية جديدة كلما تطلب الأمر، وهذه هي غاية تقدم المعرفة العلمية .

فالمنهج التجريبي مثلا، ظهر داخل الساحة العلمية كحل جديد لتقصي الموضوعية في مجال العلم والذي يقوم على الملاحظة والتجريب، وكبديل حتمي للرؤية التأملية في تفسير المعرفة، إلا أن مانهايم على الرغم من الإشارة إلى دور المنهج التجريبي المنهجي، يعتبره منهجا غير كامل من الناحية الإجرائية، حيث ارتأى إلى فكرة إضافية، وهي «...إمكان الاستعانة بالتصورات التي يفرزها التاريخ عن العالم (...) ودراسة المنشأ الذي أنجب هذه الصور وأظهرها إلى حيز الوجود. وهكذا صار الفكر يدرس في مستوياته التطورية المختلفة عن بعضها، وفي أوضاعه التاريخية المتباينة تماما»³⁶. بمعنى أن بلوغ حقيقة أي براديغم معرفي مرتبط بالمنهج الجينيالوجي الذي يمكن الباحث

من فهم سياق المعرفة من زاويتها السوسيو - تاريخية، كما أن فهم منبع الأفكار هو الذي يقودنا نحو الموضوعية التي تقدم لنا حقيقة هذا العالم. ويتبع مانهايم خطى السوسيولوجيين الأوائل الذين حددوا الفكر ووضعوه داخل الشروط الاجتماعية كما أن فهم حقيقته لن تكتمل إلا إذا أدركنا قيمة العوامل الوجودية التي تتطابق مع الرؤية الشاملة للعالم، لهذا فعلماء الاجتماع على العموم يريدون البحث في مشكلة المعرفة من خلال دراسة الفكر البشري دراسة سوسيولوجية والكشف عن الحتمية الاجتماعية التي تتحكم في المعرفة البشرية.³⁷ حيث عمل مانهايم في كتابه المغمور الإيديولوجيا و اليوتوبيا في مطلع الخمسينات على دراسة الأفكار فحددها بناء على ظرفها التاريخي العام، إذ كل فكرة إما أن تكون إيديولوجيا أو تكون يوتوبيا، فكلاهما يسبحان في صيرورة التاريخ ويعملان داخل أرضية المجتمع ، ما يجعل حقيقة الوعي في النهاية متزامنا في الفكر البشري، لأن كلا المفهومين (الإيديولوجيا و اليوتوبيا) هما وعي زائف بحسب مانهايم³⁸. وما يمكن فهمه في هذا العنصر أن مانهايم يحاول ربط الفكر بأصوله التاريخية الاجتماعية كمحاولة منه لتجاوز مشكلة الذاتية التي طبعت إلى حد ما الاستمولوجيا الحديثة، والتي نتجت عنها صراعات أيديولوجية معرفية.

ب)السيكولوجيا:

لقد ظهرت سيكولوجيا الفكر كنتيجة حتمية لسقوط براديغم القرون الوسطى اللاهوتي أمام براديغم عصر الأنوار العلماني الذي حول اهتمام الفكر إلى النظر والاهتمام بالذات الإنسانية، فتحول اتجاه الفكر من مجال نظرية الوجود إلى إبستموسيكولوجيا قائمة على الذات، فكانت السيكولوجيا آنذاك بمثابة المولود الجديد للحقل العلمي في مواجهة صرامة المنهج التجريبي، فكانت الظاهرة النفسية موضوع هذا الحقل العلمي، الذي يهدف إلى التفهم العميق للخبرات الإنسانية الخارجية المتعلقة بالظاهرة النفسية،

من حيث تفهم الجانب الوجداني للدوافع المنتجة لأعمال معينة، على اعتبار أن كارل مانهايم يؤكد على أن النفس *Psyche* هي جزء من الواقع لا تنفصل عنه لأنه يؤثر في سلوكها وتوجهاتها، فنظرية الوجود لا تسمح للنفس الإنسانية بتجنب مخاطرها، فهي تخضع لحتمية الواقع، وما دام أن الإنسان جزء من الواقع، فالنفس أيضا تابعة لخبرة صاحبها، والدليل على ذلك مجموع الخبرات التي يكتسبها الفرد من بيئته الاجتماعية التي تعطيه إدراكا جديدا في كل مرة، وبالتالي ينتج الفرد سلوكا يتماشى مع بيئته الاجتماعية، ويؤكد على ذلك بقوله:

«... ومعرفة هذه الخبرات التي تكتسبها النفس تفترض سلفا وجود نظرية عن الواقع، أي نظرية للوجود»³⁹. فالسلوك الذي يقوم به الفرد هو سلوك نابع من الخبرة التي يكتسبها الفرد من محيطه الاجتماعي مثل: العادات و التقاليد ، والقيم والأخلاق. وسيغموند فرويد أسس مدرسته في علم النفس بناء على مجموعة من العوامل التي تؤثر على سلوك الفرد منها العاملين البيولوجي والنفسي والعامل الاجتماعي والتي لخصها في الهو والأنا و الأنا الأعلى فقام بتقسيم الحياة النفسية بناء على أصولها الحتمية النفسية إلى الأنا *ego*، الهو *id*، الأنا الأعلى *super ego*، والتي سنجملها كالتالي:

الأنا : وهو المنظمة العقلية التي تشرف على جميع العمليات العقلية وهي موجودة في الشعور ومقابلة للواقع ، حيث تنام في الليل وتقوم بمراقبة الأحلام الناتجة عن الرغبات ، ويقوم بمنع ظهور الكبت الذي يحصل نتيجة الصدام بين الهو والأنا الأعلى.⁴⁰

الهو: ويعني الماضي المتمثل في ميراث الأجداد البيولوجي وكل ما نولد مزودين به كحتميات نفسية ، و الهو هو مخزن الغرائز ومثار مبدأ اللذة والرغبات ، حيث أن رغباته تستحضر كصور وأحلام ما يستدعي ملاحظتها من قبل الأنا .⁴¹

الأنا الأعلى : وهو النظام الأخلاقي الذي يمثل القيم الاجتماعية العليا المتمثلة في الأوامر والنواهي أي ما يقابل الضمير الجمعي ، وبذلك يقدم لنا فرويد ثلاثية ترتكز عليها نظريته في التحليل النفسي والقائمة على مبدأ السببية، وهي البيولوجية المتمثلة في الهو ، والنفسية والمتمثلة في الأنا ، وأخيرا الاجتماعية والمتمثلة في الأنا الأعلى ، والرغبات كلها تقودها نظرية الجنس⁴².

ومن المعلوم أيضا أن السياق التاريخي للسيكولوجيا كان مداره فلسفيا في أول الأمر ثم ما لبث أن ظهرت محاولات شبه علمية تجسدت في فكرة الاستبطان التي ارتكزت على وصف وتحليل الفرد لحالته النفسية الداخلية كملاحظة داخلية استبطانية مرتبطة بالوصف الذاتي لمشاعره إلا أن هذا المنهج الذاتي سرعان ما ترك المجال أمام المنهج التجريبي المنتشي بفكرة الموضوعية للبحث العلمي المعادي للزعة الذاتية المرتبطة بالأهواء والميول⁴³ وإذا كان لزاما على العلم التقيد بالموضوعية والابتعاد عن الذاتية كمبدأ صارم، فلأن هدفه الأسى هو وضع قانون عام وشامل يحكم الظاهرة النفسية التي تصدق على جميع الظواهر الجزئية الأخرى التابعة لها، والسيكولوجيا كميدان جديد يهتم بالفكر من جانبه النفسي، تعتبر تطورا واضحا تعكس مدى التعمق في وحدات الذات الإنسانية إذ أن المعرفة لا ترتبط بالعقل فقط وإنما أصبح للنفس أيضا نصيب مشترك في تشكيل المعرفة، لكن مانهائم لا يعترف بكل هذا إلا من خلال العامل الموضوعي، ذلك أن الإنسان عضو وظيفي داخل مجتمع.

فأولى اهتمامات السيكولوجيا كانت مرتبطة بالنظرية الدينية عن وجود الروح، حيث أن حياة المتدين كانت مبنية على الصراع الداخلي المحتار في الاختيار بين الخير والشر، ثم تطورت فيما بعد في شكل جديد قائم على فكرة الضمير الذي نجده في الفلسفة الريبية Septicism، لدى مجموعة من

الفلاسفة أمثال باسكال Pascal، مونتاني Montagne، كيركغارد Kierkegaard الذين أقاموا فلسفتهم على الضمير الفردي المترجم لوسطهم الاجتماعي المعاش بمفاهيم جديدة كاليأس والخطيئة، الخلاص الروحي، والشعور بالوحدة، لأنها تستمد ثراءها وغناها حسب مانهاييم من الخبرة ، لأن «...كل خبرة تتوجه منذ بدايتها نحو هدف ديني ملموس». ⁴⁴ بمعنى أن الوسط الاجتماعي الديني يؤثر على فعالية الأفراد الداخلية بأن يعكس كل واحد من الأفراد أفكارهم وإيمانهم المعاش كسلوك في كل عصر إلى مفاهيم جديدة يحملها المجتمع كفكرة تمارس كشيء ملموس ويتفاعل مع أفراد آخرين داخل وسطهم الاجتماعي، كما أننا لا ننسى أن جل رجال الدين يهتمون بالحالة النفسية لأفراد المجتمع من خلال فكرة الطمأنينة النفسية المنبعثة من تطبيقهم للمبادئ المنصوص عليها في عقيدتهم من عدمها، لهذا نجد الحالة النفسية للمجتمع إما تشوبها حالة من التشاؤم وبالتالي عدم الرضا، أو حالة من السعادة التي تبعث الليونة والثقافة داخل المجتمع.

فالعالم يسعى دائما إلى التعويض عن عجز القدرة العقلية للطبيعة الإنسانية، ويتم كل ذلك بمحاولة فهم الخبرات الإنسانية المختلفة والمترابطة باستعمال المنهج العلمي الذي يقوم بتصفيّة وتنقيح الظاهرة النفسية المشاهدة كخبرات إنسانية والارتقاء بها إلى مصفّ الموضوعية بالإبقاء على الحالات المتفق عليها فقط ⁴⁵، سواء كانت سوية أو غير سوية، ووضع قوانين عامة وشاملة تمكّننا من تفسير أي ظاهرة مشابهة لها.

ومادام أن الخبرة هي ممارسة الفكرة في أرض الواقع، فالمحتوى الذي نكتسبه عن طريق تلك الخبرة، يصبح بمرور الزمن مفتقرا لقيمته الأصلية، لأن هذه الخبرات تصبح ضعيفة في العالم الخارجي، كونها تصبح تهتم أكثر بالشكل الذي يفقد محتواه وأصالته الفلسفية ونظريته الدينية في طبيعة الوجود أو المجتمع، ويؤكد مانهاييم بأن «...المجتمع الذي لا تعود الجماعات المتباينة فيه

قادرة على الاتفاق حول معنى الله والحياة والإنسان، يصبح بنفس المقدار عاجزا عن أن يقرر بالإجماع ما يجب أن يفهم من عبارات الخطيئة واليأس والخلص الروحي والشعور بالوحدة. ويصبح اللجوء إلى الذات في هذه الأمور لا يجدي فتىلا»⁴⁶. بمعنى أن الأفكار الاجتماعية غير المتفق عليها وغير المفهومة اجتماعيا، لا يمكن أن تجسد في أرض الواقع كأعمال وممارسات، لأن العامل الاجتماعي هو أساس ممارسة الأفكار والشعور بها، وهذا ما يحاول ماكس فيبر معالجته من خلال مفهومه للفعل الاجتماعي.

ويستتبع مانهايم حصيلة التطور السيكولوجي من أن الإنسان قد تعمق في أغوار النفس الإنسانية، باعتبارها موضوعا علميا يستوجب ملاحظتها علميا والكشف عن أسرارها الداخلية، حيث أصبحت تمتاز بنفس خصائص العالم الخارجي، فاستبدلت بذلك المفاهيم القديمة (الخطيئة، اليأس، الشعور بالوحدة، الحب المسيحي)، بمفاهيم جديدة مثل: (الشعور، القلق، الصراع الداخلي، ممارسة العزلة، الليبيدو). فاعتمد بعض العلماء على علم الميكانيك كنموذج قابل للمحاكاة وطبقوه على الممارسة الداخلية أو هلم جرا العمليات النفسية الداخلية للإنسان بهدف تفسير الظواهر النفسية بنفس السياق المعمول به في علم الميكانيك (المركز، الحركة، السبب، النتيجة).⁴⁷

والسبب في ذلك يعود إلى محاولة بعض العلماء التمييز بين السيكولوجيا الفلسفية عن السيكولوجيا العلمية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، سعى العلماء لتأسيس علم يحكم السلوك الإنساني ويدرك قوانينه وفق أسس تجريبية مماثلة للظاهرة الطبيعية، من ذلك توالي الاكتشافات العلمية وبروز أهم الميادين التي أثرت في النفس البشرية، مثل الفيزياء والبيولوجيا، إذ سعى أنصارها على محاكاة صيغة التكميم والقياس بهدف بلوغ فهم أدق للظاهرة النفسية⁴⁸.

وبناء على محاكاة النظرية الديناميكية في تفسير مشكلة النفس، سوف يتحول موضوعها من التساؤل حول السبل المفضية إلى فهم الإنسان لنفسه بناء على مثله ومعاييرها العليا، نحو تساؤل جديد مفاده «...كيف يمكن لوضع خارجي وبدرجة احتمال يمكن التحقق منها، أن يستدعي آليا رد فعل داخلي؟»⁴⁹ وبالتالي يصبح الإنسان بذلك يفسر سلوكه تفسيرا سببيا، إذ أن المقولة السببية التي تعمل وفق فكرة التابع المنتظم لحادثتين مبسطتين شكليا، كما توضحها الخطة الوهمية التي تقول: «...ينشأ الخوف حينما يحدث شيء غير عادي»⁵⁰.

وقد استفادت المدرسة السلوكية بزعامة جون واطسون من الفيزيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء من خلال بعض الأبحاث التي كانت تقوم على فكرة الاستجابة الشرطية ، فطبقت في بادئ الأمر على سلوك الحيوانات ثم استعان بها بعض علماء النفس السلوكيين ليدرجوها كمبدأ أساسي يقوم عليه علم النفس السلوكي الذي يهتم بدراسة السلوك الخارجي فقط للظاهرة النفسية المشاهدة.⁵¹ من أجل إثبات العلاقة السببية القائمة على المعادلة الترابطية بين المؤثر والاستجابة، والعلاقة السببية تفرض على النفس الإنسانية بالضرورة التأثير بما تدركه من أحداث موجودة في الواقع وفق علاقة تتابعية آلية ، إذ يكون لكل فعل رد فعل ، مثل : رؤية أسد خارج القفص يثير الهلع في الحضور.

لكن مانهايم يرى بضرورة إعادة النظر في تفسير الخوف وفق النظرية السببية، لأن الحقيقة الخارجية والانعكاس الداخلي، يختلفان بحسب الظروف الخارجية للعالم الخارجي الذي يؤثر على النفس الإنسانية حيث يقول: «...ففي هذه الخطة إهمال متعمد لحقيقة أن كل نموذج للخوف يتغير تماما بتغير محتواه (فالخوف من فقدان اليقين غير الخوف من مواجهة حيوان)، كذلك يوجد في هذه الخطة إهمال متعمد لحقيقة أن ما هو غير

عادي يختلف كلياً باختلاف السياق الذي تكون الأشياء فيه عادية. لكن الهدف الدقيق هو التجريد الذهني الشكلي للصفات المشتركة في هذه الظواهر المختلفة نوعياً»⁵²

ومعنى ذلك أن هذه النظرية السببية لا تهتم بباطن السلوك من أجل استكمال العلاقة السببية بين المؤثر والاستجابة، وإنما تهتم بالظاهر فقط بالنظر إليها كروية واحدة ومتكررة، فالسياق الذي يتحكم في السلوك الإنساني يلعب دوراً هاماً حسب مانهايم لإدراك التفسير النهائي للسلوك الإنساني، كما أن هدف هذه النظرية الحصول على النتيجة النهائية فقط، وليس الجانب الذهني باعتباره سبباً في استكمال حدوث ردة الفعل كطرف ثانٍ، لأن الفرد الذي يقتنع بفكرة الدفاع عن نفسه لا يهتم بالخوف من الخصم، وبالتالي تحتاج العلاقة السببية إلى شرط ثالث لاستكمال استجابتها الشرطية .

هناك أيضاً المقولة الوظيفية والتي يحددها مانهايم بقوله: «...بمعنى أن الظواهر المنفردة كانت تفسر حسب الدور الذي تلعبه في العمل الشكلي للألية النفسية كلها، كما يحدث مثلاً حين تفسر الصراعات العقلية على أنها في الأساس نتيجة لميلين متعارضين غير متكاملين وغير مندمجين في المجال النفسي، أي على أنها تعبيرات عن فقدان الذات للانسجام النفسي. وتكون وظيفة هذه الصراعات إرغام الذات على إعادة تنظيم عملية التكيف الخاصة بها وعلى الوصول إلى توازن جديد».⁵³ وقد اهتم أنصار المدرسة الوظيفية بالتساؤل حول الشعور وأهدافه وأغراضه ووظائفه، منتهين في الأخير بمحاولتهم معرفة وفهم كيفية استخدام الناس لخبراتهم العقلية في التكيف مع البيئة.⁵⁴

لكن على الرغم من أن مقولتي السببية والوظيفية قد قامتاً بدور هام في تفسير الظاهرة النفسية، كعنصرين هامين داخل المنهج العلمي، إلا أنهما

حسب مانهايم لا يستطيعان القيام بالإدراك الشامل للحقيقة الداخلية للإنسان والإجابة عن السبب الفاعل وراء الظاهرة الملاحظة، ذلك أنه: «...وكما أن أدق نظرية في السببية والوظيفية لا تجيب عن السؤال الخاص بمن أكون وما أكون حقا، أو الخاص بمعنى كوني بشريا، كذلك لا يمكن أن ينبثق عن هذه النظرية ذلك التفسير للنفس وللعالَم المطلوب حتى في أبسط فعل قائم على قرار تقييبي»⁵⁵.

كما أن مقولتي السببية والوظيفية، بالرغم من قيمتهما الكبيرة في البحث السيكلوجي، إلا أنهما فشلتا عندما أسقطتا على السياق الكلي للخبرة الحياتية، لأنهما لا تقولان شيئا بخصوص الهدف ذو المعنى في السلوك، كما أن النمط السببي في التفكير ذا نفع بالهدف المنتظر فقط، ولم يعالج سوى الوسائل، وأهم دور للفكر في الحياة هو ترشيد السلوك حين يتوجب قرارات، فكل قرار حقيقي يتضمن حكما بخصوص الخير والشر، أو حكما بشأن معنى الحياة والعقل.⁵⁶

كما أن هاتين المقولتين تنطويان على تناقض داخلي، لأن بداية نشأة استقرار العناصر الشكلية بواسطة هاتين المقولتين كان بهدف مساعدة الناس للوصول إلى أهدافهم بكل سهولة، ذلك أنه «...حين يتخذ المرء وجهة نظر سببية ووظيفية محضة، فإنه لا يكتشف إلا فيما بعد المعنى الذي كان في الأصل مخفيا في نظرية الوجود التي سار بموجيها، وهذا المعنى الخفي كان يقف ضد تجزئة الخبرة إلى ملاحظات صغيرة معزولة بعضها عن بعض، أي التجزئة من نقطة النظر إلى النشاط».⁵⁷

ج) السوسيولوجيا:

إن تاريخ السوسيولوجيا يشهد بأن الاهتمام بالمجتمع كان منذ القديم، حيث نلمس ذلك لدى اليونان ثم في الحضارة الإسلامية مع ابن خلدون من خلال تأسيسه لعلم العمران البشري، منتهين بالسوسيولوجيا الفرنسية مع

كل من سان سيمون وتلميذه أوغست كونت مبتكر المصطلح ، ثم دوركايم الذي استكمل التراث الكونتي منهجيا في علم الاجتماع وقد كانت السوسيولوجيا آخر العلوم نشأة إذ نستدرك مآثرها مع كارل مانهايم الذي يريد استكمال وتطوير ما بدأه الرواد الأوائل من علماء الاجتماع ومعالجة المشاكل التي لم تعالج، ذلك أنه توجد بعض العناصر الاجتماعية التي يجب إعادة النظر في تداولها، ومن بينها خرافة الفرد المعزول والمكتفي بذاته، فهذه الفكرة تعتبر إشكالية مرت بها كل من الاستمولوجيا الكلاسيكية والسيكولوجيا حيث أنهما اهتمتا بالذات الإنسانية كعنصر فاعل وأهملت العوامل الموضوعية التي تؤثر بدورها على فعالية الذات أيضا، فالاستمولوجيا كانت تمجد الفرد باعتباره مالكا للمعرفة ومنتجا لها، دون الحاجة إلى العوامل الموضوعية لأنه مكتف بذاته، أما السيكولوجيا فإنها نظرت إلى الفرد على أنه يمر بمراحل تطورية دون أن تكون هناك وظائف تقوم بها البيئة الاجتماعية والمادية الخارجة عنه، سوى أنها تسهل له مهمة تفعيل قدراته، حيث أن «... مثل هذه النظريات ظهرت ونمت في تربية قوامها المذهب الفردي النظري المبالغ فيه (كالمذهب الذي وجد في عهد النهضة وفي عصر المذهب الليبرالي الفردي) الذي ما كان يمكن أن يوجد إلا في وضع اجتماعي عمي عن رؤية العلاقة الأصلية بين الفرد والجماعة»⁵⁸. بمعنى أن كل من الاستمولوجيا و السيكولوجيا لم تهتديا إلى الانطلاق من العوامل الموضوعية باعتبارها الأساس الذي يجب أن ينطلق منه الباحث لكي يصل في الأخير إلى حقيقة الإنسان كونه فرد اجتماعي يعيش في بيئة اجتماعية يتأثر بها ويشكل فيها ومنها عالمه المعرفي اجتماعيا، كما أن العلوم السابقة لعلوم الاجتماع أهملت الجانب الاجتماعي بتقديم الأولوية للجانب الذاتي فقط، ما جعلها في نظر مانهايم غير موضوعية.

ويجب التنويه للتمايز الموجود بين علم الاجتماع الألماني عن علم الاجتماع الفرنسي ذلك أن علم الاجتماع الألماني غير مرتبط بشخصية معينة مثلما هو موجود في التقليد الفرنسي، وقد أثرت فيه قضية فهم الظاهرة الاجتماعية باعتبارها موضوعا متمایزا عن الظواهر الطبيعية، وقد تمكن كل من جورج زيمل وماكس فيبر من وضع أسس علم اجتماع الفهم في ألمانيا⁵⁹. إن المجتمع هو الوحيد القادر على تشكيل وتنشئة الفرد من خلال الأوضاع الاجتماعية، حيث أن تفاعل الفرد داخل الحياة العامة واحتكاكه بأفراد جماعته يكسبه الصفات الاجتماعية اللازمة التي تشكل له فرديته الاجتماعية، ذلك أن الفرد حسب مانهايم لا يستطيع إنتاج المعرفة أو التأثير في المجتمع بمعزل عن الجماعة، وإنما المعرفة حسب «...هي منذ البداية عملية تعاونية في حياة الجماعة ومن خلالها يكشف كل فرد عن معرفته في إطار المصير المشترك والنشاط المشترك والتغلب المشترك على الصعوبات»⁶⁰. وكما أشرنا في المحطات السابقة أن مانهايم يصر على الطابع الموضوعي البعيد عن كل ما يرتبط بالذاتية الإنسانية، حيث يعزي المعرفة الإنسانية عموما إلى النشاط البشري المشترك بين أفراد المجتمع كأعضاء مشتركين معا في بناء أفقهم الاجتماعي المعرفي. إن إصرار مانهايم على الجانب التعاوني في إنتاج المعرفة إنما هو اعتراف بالدور العملي الوظيفي في إنتاج المعرفة، فالفرق بين المدخل المشترك بين الجماعة في إنتاج المعرفة، وبين المدخل الفردي هو أن منظور الفئات الصغرى مختلف عنه عند الجماعة الأكبر، كما أن الفئات الصغرى تقوم على أساس خبراتي خاص بها، عكس المدخل الجماعي الذي يمتاز بالوظيفية والاشتراك في إنتاج المعرفة، حيث يعبر عن ذلك بقوله: «...إن درجة الزيف في الصورة التي يعطيها التصور الفردي الخاص بمشكلة المعرفة عن المعرفة الجماعية تتفق مع ما يمكن أن يحدث لو فكرنا بتقنية مصنع متخصص

جدا فيه ألفا عامل (...) وبالطبع لا يقوم العمال، في واقع الأمر، بعمل نفس الشيء بنفس الأسلوب، ولكنهم يعملون كجماعة، ومن خلال تقسيم الوظائف يخرجون جماعيا الإنتاج كله إلى حيز الوجود».⁶¹

لقد فشل منظور الإنسان العارف في نظر كارل مانهايم ، ذلك أن الرابطة الاجتماعية الأصلية التي تبنى عليها كل خبرة وممارسة فردية داخل الجماعة لم تحظ أبدا بالتحليل والفهم الكافيين ، لأن الأصول الاجتماعية تقوم بتوليد الفئات الثانوية التي تعمل وتفكر جماعيا مع بعضها وضد بعضها، بهدف بلوغ مستوى تفهم المعاني المختلفة التي تنشأ في المجتمع الشامل نفسه.⁶²

خاتمة:

نستنتج من خلال التحليل السابق أن الأزمات التي عاشتها أوروبا خلال مسيرة حياة كارل مانهايم ، قد شدته نحو الاهتمام بالمعرفة الاجتماعية من لدن القيمة العلمية التي كانت تزخر بها المجر وألمانيا، حيث فتحت له هاتان المحطتان الأفق الاستمولوجي الاجتماعي الذي استكمل خطاه في بريطانيا أين عكس في جل كتاباته تقريبا في أن المعرفة الاجتماعية لا بد أن تفهم بالرجوع إلى أصولها السوسيو-تاريخية مع الإبقاء على الإبداعية الفردية بمفهومها الاجتماعي والتي تساهم بفكرها على التقدم الذي تعكسه رؤيتها الشاملة للعالم، ويتم كل هذا من خلال النخبة المستقلة بفكرها عن أي إيديولوجيا مهيمنة ، قصد الحفاظ على ديناميكية وصيرورة الفكر بمفهومه الاجتماعي. فالفكر الاجتماعي هو من يساهم في تقدم المعرفة الاجتماعية كما يساهم في تقدم الفكر العلمي من جهة أخرى، حيث تعتبر الاستمولوجيا الاجتماعية القائمة على سوسيولوجيا المعرفة التفاتة نوعية من حيث قدرتها على الغوص داخل البنية الفكرية وأصولها التاريخية التي تعكس كخبرة

اجتماعية يمارسها أفراد المجتمع الذين يمارسونها في حياتهم كمعرفة مشتركة
تعكس الرؤية الشاملة للعالم. كذلك لابد من التذكير على أن الاستمولوجيا
الاجتماعية المانهيمية دفعت بالعلوم الاجتماعية نحو الأمام من حيث قدرتها
على دراسة الأفكار الإيديولوجية باعتبارها عائقا يجب تجاوزه، وبالنظر إليها
على أنها مجال خصب يمكن دراسته عن طريق سوسيولوجيا المعرفة.

الهوامش:

- 1)Brayan .S .Turner: Classical Sociology, SAGE Publications LTD ,London, New Delhi ,1999.p 112.
- 2)op. cit. p112.
- 3)يورغن هابرماس: الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، ترجمة: نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، 1995، ص 80.
- 4)جماعة من الأساتذة السوفييات: موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة وتقديم: توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت لبنان الطبعة الأولى، 1989، ص 719.
- 5)مجموعة مؤلفين: مدرسة فرانكفورت النقدية، جدل التحرر والتواصل والاعتراف، تحرير وإشراف: علي عبود المحمداوي، إسماعيل مهنانة، ابن النديم للنشر والتوزيع ، دار الروافد الثقافية-ناشرون، الجزائر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ، 2012، ص ص 58-59.
- 6)جورج لوكاش: تحطيم العقل، ت: إلياس مرقص، الجزء الرابع، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1982، ص 40.
- 7)Brayan .S. Turner: Classical Sociology ,p113.
- 8)Donald A. Nielson: Religion, Utopia, and Ideology: Reflections on the Problems of Spiritual Renaissance and Social Reconstruction in the sociology of Karl Mannheim {On line} = www.Okcir.com/Articles%201%202/HAfall_02P101-108.pdf. p102.
- 9)عبد السلام بنعبد العالي: الميتافيزيقا، العلم والايديولوجي ا، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، لبنان ، الطبعة الثانية، ص 47.
- 10)كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ترجمة: محمد رجا الديري، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، الطبعة الأولى، 1980، ص 85.
- 11)Karl Mannheim : Essays on the sociology of knowledge, edited by Paul Kecskementi, Routledge and Kegan Paul LTD,London,1st published,1952.p 157.
- 12)Karl Mannheim: Essays on the Sociology of culture, volume seven ,Routledge and Kegan , 1st published,1956.p 75.

-
- 13) هشام معافة: التأويلية والفن عند هانس جورج غادامير، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة/الجزائر، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى، 1431هـ-2010م. ص 63.
- 14) بول ريكور: من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001. ص 255.
- 15) كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص 83.
- 16) المصدر نفسه، ص 84.
- 17) المصدر نفسه، ص 83.
- 18) Karl Mannheim : Essays on the sociology of knowledge, Ibid. p85.
- 19) كارل مانهايم، الإيديولوجيا واليوتوبيا، المصدر نفسه، ص 84.
- (*)الابستمولوجيا (Épistémologie) كلمة يونانية تتألف من مقطعين هما ابستيحي (épistème): وتعني معرفة، لوغوس (logos) وتعني خطاب، وبدمج المقطعين تصبح تعني خطاب العلم. انظر:
- Michel Blaye ; Larousse Grand Dictionnaire de la philosophie CNRS édition ,Paris,2005.p347.
- 20) Robert Audi: The Cambridge Dictionary of philosophy , Cambridge university press, USA, New York ,2nd edition, 1999.p273.
- 21) أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلد الأول (A- G)، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 2001. ص 357.
- 22) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 23) كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا. ص 93.
- 24) إبراهيم مصطفى إبراهيم: منطق الاستقراء، المنطق الحديث، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، 1999. ص ص 103-104.
- 25) ريتشارد تارناس: آلام العقل الحديث، ترجمة: فاضل جتكر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، العبيكان، الإمارات العربية المتحدة/المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1431هـ-2010م. ص 267.

-
- (26) جمال حمود (وآخرون): الفلسفة بين تعدد المناهج ووحدة الحقيقة، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2010، ص 126.
- (27) Karl Mannheim : Essays on the sociology of culture .Op. cit .p 151.
- (28) أيوب أبودية: العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيك إلى هيوم، مراجعة: صفوان البخاري، دار الفارابي بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2009، ص 165.
- (29) جون كوتنغهام: العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، 1997، ص 47.
- (30) كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص 94.
- (31) المصدر نفسه، ص 93.
- (32) ريمون بودون: أبحاث في النظرية العامة في العقلانية، العمل الاجتماعي والحس المشترك، ترجمة: جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2010، ص 30.
- (33) باتريك هيلي: صور المعرفة. مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، ترجمة: نور الدين شيخ عبيد، مراجعة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2008، ص 33.
- (34) المرجع نفسه، ص 34.
- (35) كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا: ص 94.
- (36) المصدر نفسه، ص 95.
- (37) زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مشكلات فلسفية (4)، مكتبة مصر، 1971، ص 246.
- (38) عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2006، ص 197.
- (39) كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص 95.
- (40) المصدر نفسه، ص 31.
- (41) فيصل عباس: التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية، المقاربة العيادية، دار الفكر العربي بيروت، الطبعة الأولى، 1996، ص 33.

-
- (42) المرجع نفسه، ص 34.
- (43) عبد الرحمن العيسوي: أصول البحث السيكولوجي علميا ومهنيًا، دار الراتب الجامعية، بيروت لبنان، (د.ط)، (د.س). ص 13.
- (44) كارل مانهايم: الإيديولوجيا اليوتوبيا، المصدر السابق نفسه، ص 96.
- (45) عبد الرحمن العيسوي: أصول البحث السيكولوجي علميا ومهنيًا، المرجع نفسه، ص 31.
- (46) كارل مانهايم: الإيديولوجيا و اليوتوبيا ، ص 96.
- (47) المصدر نفسه ، ص 96.
- (48) علي زيعور :علم النفس في ميادينه وطرائقه، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت- لبنان،(د ط)، 1413هـ-1993م، ص 29.
- (49) كارل مانهايم: الإيديولوجيا و اليوتوبيا ، ص 97.
- (50) المصدر نفسه ، ص 97.
- (51) عبد الرحمن العيسوي: أصول البحث السيكولوجي علميا ومهنيًا، ص 44.
- (52) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.
- (53) المصدر نفسه ، ص 97.
- (54) عبد الرحمن العيسوي: أصول البحث السيكولوجي علميا ومهنيًا، ص 42.
- (55) كارل مانهايم: الإيديولوجيا و اليوتوبيا ، ص 98.
- (56) المصدر نفسه ، ص 98.
- (57) المصدر نفسه، ص 98-99.
- (58) المصدر نفسه، ص 105.
- (59) جان ميشال برتيلو: بناء علم الاجتماع، تعريب: جورجيت الحداد، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، 1999. ص 43
- (60) كارل مانهايم: الإيديولوجيا و اليوتوبيا، ص ص 105-106.
- (61) المصدر نفسه، ص 106.
- (62) المصدر نفسه، ص 107.